

## تمثيل المعاناة الجسدية والنفسية في قصص يوسف إدريس

### قصة " ٥ ساعات " نموذجاً

شفاغت فاروق ريش<sup>١</sup>

ملخص

الملخص:

مارس الأديب الكبير يوسف إدريس الطب لفترة من الزمن فلا غرو أن بصمات مهنة تنعكس في كثير من قصصه فهي تدور عادة حول المستشفى وتصور العلل والتشوهات بطرق شتى، فيرتبط عدد غير قليل من شخصياته بمهنة الطب كجراحين أو أطباء أو ممرضات. ونرى أن المؤلف مرتبط في الجزء الأكبر من أعماله بالحياة العقلية لشخصياته. يركز الكاتب على هذا الجانب بتفصيل كبير خلال تحديد المواقف التي يعاني فيها جسم الإنسان الذي يحس الألم حتى يصيبه أحياناً ضغط الدم. كذلك يعمل بعض المواقف عند المؤلف على أحداث التغيير في الشخصيات عندما تشهد معاناة الآخرين فتنشأ فيهم العواطف الإنسانية الحنانة. يهتم يوسف إدريس أيضاً بنفسية الإنسان وأسباب أصابته بالجنون. ساعدته مزاولاته في دراسة الذكاء البشري.

الكلمات الدلالية: يوسف إدريس، القصة القصيرة، المهنة الطبية، المعاناة الجسدية والعقلية.

مقدمة

يعتبر يوسف إدريس أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في القرن العشرين،

---

١ باحث الدكتوراه، في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة كشمير، سري نغر كشمير.

فهو أديب متمكّن من فنّه، وقامته سامقة في دنيا الأدب العربي الحديث، فهو فتان وكاتب مصري ومناضل وطني، وقاص ومسرحي وصحفي مصري، فقد كانت أعماله الأدبية من قصص قصيرة وروايات متجذرة في عمق الثقافة العربية والمصرية، ولد هذا الكاتب الكبير ١٩٢٧ م في قرية البيروم من المحافظة الشرقية بمصر.

وقد استوعب يوسف إدريس، كما استوعب غيره من المفكرين والأدباء أفكارا مضطربة حول الحرية والاستقلال. وقد بدأت اهتماماته الوطنية، والفكرية مبكرا، وعلى حد تعبير د. محمد الجوادى: "إن شأن يوسف إدريس شأن كل المثقفين والمهنيين المصريين من جيله، قاسى من كل ما قاسى منه جيل كامل من ظروف لم تكن القاهرة وقاسية فحسب، بل أنها كانت سريعة التقلب والتبدل، ومن الملاحظ قد أصابته هذه الظروف بحزمة من الأمراض العضوية وحزمة أخرى من الأمراض النفسية، ومن الحق أنه صارع هذه الأمراض بكل قدرة له على المجاهدة وبكل رغبة له في الحياة".<sup>١</sup> وأن المجتمع المصري بقي أقرب إلى قلبه في كل مرحلة من مراحل الدراسة ثم التدريس والكتابة ومن هنا تتمحور معظم أعماله حول حركة المجتمع في تطورها ونموها وتقدمها، كمجموعات قصصه القصيرة والروايات والمسرحيات ولكن من بين هذه الأعمال اكتسبت مجموعات قصصه القصيرة مكانة مرموقة وحظيت بالتقدير الكبير بين الأوساط الأدبية.

### رحلته الأدبية

يعتبر عام ١٩٥١ م نقطة التحول في حياة يوسف إدريس الأدبية حين أنهى دراسة بكلية الطب، تابع تدريبه الطبي كطبيب مقيم في مستشفى القصر العيني، وفي نفس الوقت، قد بدأ يخصّص نفسه جديا للكتابة الإبداعية. وفي عام ١٩٥٢ م، في شهر سبتمبر، التحق بهيئة تحرير مجلة "التحرير" اليسارية، وكان أحمد حمروش يرأس تحرير المجلة ويؤكد أن انطلاقة يوسف إدريس الأدبية جاءت مع سنة ١٩٥٣ م، بعد

١ د. محمد الجوادى "يوسف إدريس الذي عاش السياسة في معطف الفنان الأزرق" ١٥-١٠-٢٠١٩

أن عين كمحرر بجريدة المصري، واسعة التأثير والانتشار، من جانب أحمد أبو الفتح، الذي كان رئيس تحرير لنفس الجريدة. وفي نفس العام، قد "أصبح مسؤولاً عن القسم الأدبي بمجلة "روزاليوسف"<sup>١</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك قد ساهم في حركة الدفاع للأمن بصورة فعالة حتى ترأس الوفد المصري في عام ١٩٥٣م، الذي ذهب إلى فيينا للمشاركة في مؤتمر الأمن. ومع ذلك "عندما داوم ممارسة الطب، وبمرور السنوات تم تعيينه في وظائف حكومية متنوعة"<sup>٢</sup>. وقد عمل كمستشار طبي في القاهرة للإدارة المحلية في القاهرة، ثم بعده قد استخدم كمسؤول طبي في محافظة القاهرة، وكان مسؤولاً عن خدماته الطبية في ورش الوزارة، وفي وزارة الأشغال العامة. وقد عين مفتشاً صحياً في مناطق مختلفة من القاهرة الكبرى في السيدة زينب والدرب الأحمر، وفي حلوان، التي هي المنطقة الصناعية الجنوبية من المدينة.

وكذلك قد استخدم خدماته كمحرر ثقافي لجريدة "الجمهورية"، وهكذا بازدياد لهذه الأعمال، إنه "كان فائزاً على منصب المستشار الثقافي للمؤتمر الثقافي للأمن العام، واحتل عدداً من المناصب"<sup>٣</sup>، مثل مستشار ثقافي بمؤسسة الأهرام وكبير قطاع المسرح، وكان رئيساً لجمعية نقاد المسرح والكتاب، كما عمل كوكيل لنقابة الصحفيين. وأنه ظل مهتماً بالسياسة، وفي شهر أغسطس عام ١٩٥٤م، توجه يوسف إلى عبد الناصر باللوم على تفاوضه من أجل الاتفاق على مستقبل القاعدة البريطانية في منطقة القناة. وقد أصدر عبد الناصر الحكم ضده، وقد قبض عليه، وأدخله في السجن وظل مسجوناً حتى شهر سبتمبر عام ١٩٥٥م.

---

<sup>١</sup> حديث شخصي، يونيو ١٩٧٨ نقلاً عن "الإبداع القصصي عند يوسف إدريس" ترجمة وتقديم رفعت سلام ص ٥٠.

<sup>٢</sup> غالي شكري "يوسف إدريس" حوار، ص ٤٣ ديسمبر ١٩٦٥م

<sup>٣</sup> ب- م كرير شويك. ترجمة وتقديم رفعت سلام "الإبداع القصصي عند يوسف إدريس" ص ٥٢ وما بعدها

والجدير بالذكر أن الكاتب ترك الطب من أجل الكتابة. أدرك تاريخها، وفطن إلى أساليب كتّابها العالمين، وتلقت إلى زوايا لم يتلفت إليها الكتّاب الآخرون، واختار لصياغتها أسلوباً فنياً جمع خيوطه من طريقة الحكيم التي يستخدمها الإنسان المصري، وكان أخذ اللغة بناصيتها و اجترأ في استخدامها، فقد شغل القراء والنقاد والكتّاب، منذ بدأ ينشر قصصه في الصحف والمجلات، وأن قصصه القصيرة، بدأت في الظهور سنة ١٩٥٠م مع قصص أبناء جيله، وقصص الرواد الذين سبقوه، وعندما نفكر في حياة يوسف إدريس الذاتية وشخصيته الأدبية، نشاهد أنه كان ابن البيئة المصرية الشعبية، ومرت هذه البيئة بالكثير من التغيرات والتبدلات، وكان من أبرز الذين دعوا إلى معتقدتهم بقوة، ونشروه بمحاولاتهم، بوسائل مختلفة، وطرق متنوعة مقروءة كانت أو مسموعة، وإنه يبين في أدبه آثاراً مضت تاريخياً بكل ما تحمل من أفكار وعقائد وقيم إنسانية ويقدم لنا سيراً، وأحداثاً كان لها وجوداً وأثراً.

ويعد يوسف إدريس كأبرز كتّاب القصة القصيرة في الستينيات، وكان منطلقه ثورياً تقدمياً، ورؤيته الفنية كانت شاملة، كما كان يلتزم لكاتب القصة القصيرة أن تكون عنده رؤية خاصة خلال كتابة القصة القصيرة وحتى أنه أي يوسف إدريس حقق قصته هو برؤيته ونظرتة للعالم مما جعله أبرز كتّاب القصة العالمية. وهكذا كانت كتاباته مرتبطة بإنسان المجتمع المصري، وترافق قصصه القصيرة حركة المجتمع في نموها وتطورها وتقدمها. وحسب قول الدكتور طه وادي " ونستطيع أن نلخص تجربة إدريس في أنه قد تمكّن من أن يطهر بناء القصة من التثيرة والحشو، كما برع في اختيار اللحظات التي تعبر عن موقف في حياة إنسان بسيط، لم يفقد أمله في الحياة- رغم شقائه بها، ومن ثم فإن القصة عنده: لدغة عقرب. . موجعة ومؤثرة. . وذات علاقة وثيقة بحياة كثير من الشخصيات المسحوقة في المجتمع التي لم يستطع الفقر المادي والقهر الاجتماعي أن يمحو ما فيها من بعد إنساني".<sup>١</sup>

<sup>١</sup> الدكتور طه وادي " القصة ديوان العرب قضايا ونماذج، ط ٢٠٠١، ص ٧٨

وعلى حد تعبير د. سيد حامد النساج "إن قصص يوسف إدريس أثارت حولها الجدل والحوار، واستطاعت أن تؤثر في جيل كامل من الكتاب الشباب، ولعلها أثرت في أبناء جيله أيضا"<sup>١</sup>. وينتسب معظم أبطال قصصه إلى شرائح اجتماعية فقيرة ماديا وثقافيا مثل عمال التراحيل، وصغار الفلاحين والطلبة والعمال في قاع المدينة أو مجتمع القرية. وأن الكاتب يمتلك رؤية أدبية فكرية، ما امتلك أحد من معاصريه أو حتى من الذين سبقوه، من حيث كان مدركا ومظاهرا للوجود الإنساني، والحقائق التي تتعلق بالإنسان، وقد حاول في بلده ليخرج المهمشين من ظلام الهامش ووضعهم في عمق المشهد كأبطال حقيقيين وفاعليين في المجتمع. وتوضح لنا هذه الحقيقة حسب قول الروائي الدكتور بهاء عبد المجيد: فيقول "إن يوسف إدريس عبر عن الوعي القومي وصنع من القصة القصيرة فناً شعبياً، مضيافاً وكلّ قارئ لقصصه يجد هممه فيها، وكان يألم عن الشعب العربي، وكان ذلك لعمق كتابته التي عبرت عن الواقع الاجتماعي والانساني"<sup>٢</sup>. وبعد الذكر هذه اللقطة الموجزة من محطات حياة الشخصية والأدبية للكاتب يوسف، ينكشف لنا تسييق ما سنخوض في غماره من تحليل دراسي لأهم إنجازاته الأدبية قصة " ٥ ساعات" القصيرة بشيء من التفصيل ودراسة هذه القصة القصيرة من الناحية الفنية والجوانب الإبداعية، مركزاً القول على تمثيل معاناة العقلية والجسدية للقصة ثم متطرقاً إلى دراسة وجيزة لأسلوبه الأدبي والفني.

### قصة "٥ ساعات" القصيرة:

تتناول قصة " ٥ ساعات" معاناة الجسم البشري وتأثير ذلك على الآخرين. وهذه القصة نشرت ضمن مجموعة القصص القصيرة "أرخص ليالي"<sup>٣</sup>. وهذه القصة مليئة

<sup>١</sup> جماعة من الأساتذة، الأدب العربي الحديث للصف الثالث الثانوي، ومنه "القصة القصيرة العربية، ل- أ. د. سيد حامد النساج، ط١ ١٩٩١-٩٢، ص ٢٠٩

<sup>٢</sup> مجلة "روز اليوسف" اليومية: العدد السابع، ٢٠ مايو ٢٠١١

<sup>٣</sup> هذه المجموعة القصصية الأولى للكاتب يوسف إدريس نشرت ١٩٥٤م

بالدم، والأمل، واليأس، واختراق الآخر، وعنوان القصة يشير إلى الساعات التي حاول فيها الكاتب، هو يوسف إدريس نفسه، إسعاف ضابط أصابته ثلاث رصاصات، وهو يأتي إلى القصر العيني، واغتالوه واحد ضابط في الروضة.

وتقدم هذه القصة معالجة لحادث شخصي، وتعبّر عن محاولة الراوي اليائسة لإنقاذ حياة عبد القادر طه المناضل السياسي الذي قتل غدرا على يد البوليس السري للملك فاروق، ونقل إلى مستشفى "القصر العيني" حيث توفي بعد خمس ساعات من وصوله إلى مستشفى المذكور. وهكذا تبدأ القصة من لحظة وصول سيارة الإسعاف حاملة الضابط المصاب، من حيث كانت لحظة مدهشة مزقت فيها سكون المستشفى بالقصر العيني كله صرخة مدوية طويلة صادرة من الأدوار العليا. فيصور الكاتب عن تلك اللحظة الخطيرة قائلا:

"وفجأة.. دق جرس الإسعاف.."

دق في قصر مرتفع مبتور..

ولهذا الدق عند كل الناس معنى، معنى يحمل في طياته رهبة تشرخ قلوبهم، ورعشة تنتفض لها أعصابهم، فإنه يعني إنسان يموت أو سيموت".  
"وقبل أن استعيد نفسي، انساب (الترولي) إلى الحجر في نفس اللحظة التي مزقت فيها المستشفى كله صرخة مدوية طويلة صادرة من الأدوار العليا.

"وغادرت المقعد في لهفة وانكبت على الجريح أراه وأرى النار التي أتت عليه. والحق أنني لم أر ما حدثت رؤيته، فقد كان الرجل يرقد في ثقة وقد أسبل عينيه وشبك ذراعيه فوق صدره وزم شفثيه واسترعتني ملامحه.. كانت فيها مصرية... مصرية من ذلك النوع الذي يوقظ فيك مصريتك ويجعلك تعشقها من جديد"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> قصة ٥ ساعات، من مجموعة أرخص ليالي، ص ٨٩-٩٠.

وعلى حد تعبير الدكتور السعيد الورقي "وقصة ٥ ساعات تبدأ من لحظة وصول سيارة الإسعاف حاملة الضابط المصاب، ثم تتطور اللحظة بعد ذلك وصولاً بالموقف إلى نهايته في ترتيب منطقي قلما تحدث فيه وقفات، وإذا حدث فارتداد بسيط بالذاكرة من خلال الراوي، كما في قصة "الشهادة" عندما شاهد الراوي أحد مدرّسيه في المرحلة الثانوية فارتد يراجع في ذاكرته ما ظلّ بها من ذكريات عنه".<sup>١</sup>

وحين يصل هذا الرجل المصاب إلى المستشفى القصر العيني، يستأنف التناقض الدرامي، الذي تكون في الفقرات الأولى، في إفشاء الحياة في نفس القصة. فقد أعقب وصول هذا الرجل باسم عبد القادر إلى المستشفى فترة من التأمل والحوار، إلى أن يوجد الراوي ثلاثة ثقب في ظهر الرجل أوجدتها الرصاصات، كما يبدو لنا بعبارة القصة في رسم الكاتب في الفقرة التالية:

"ودلف رجل الإسعاف إلى حجرة الاستقبال، وقال وهو يكاد يلهث:

- حالة ضرب نار يابيه! واحد ضابط اغتالوه في الروضة!

ضرب نار! .. ضابط! .. اغتيال! ..

"لم أعد نفسي حينئذ لصبغة اليود وماسك الإبر والخيط، فقد اختفى من شخصيتي تماماً عامل الحياة، وطفحت تلك الكلمات القلائل فوق ذهني يدفعها بركان يخترنه شعوري عن الاغتيال والظلام وضرب النار".<sup>٢</sup>

وبالإضافة إلى ذلك أن الكاتب لم يشر إلى من هم الذين اغتالوه، وكان الضابط المصاب يردد بين الحياة والموت وهو يقول في نفس صوته المملوء المنخفض الرنان قائلاً:

---

<sup>١</sup> د. السعيد الورقي " مفهوم الواقعية في القصة القصيرة عند يوسف إدريس " ط ١، ١٩٩٠، ص ٤٢

<sup>٢</sup> قصة ٥ ساعات، من مجموعة "أرخص ليالي" ص ٨٩

" - قتلوني .. في الظلمة .. ضربوني بالنار .. هنا .. في ضهري .. وسألته وأنا

ملسوع دهش:

مين .. مين هم؟! ..

فقال وهو مسترسل بنفس صوته الذي كان يجذبني إليه بقوة وعنف:

- المجرمين .. ورئيسهم .. العصابة .. كلهم .. أولاد الكلب .. " . ثم تتطور اللحظة بعد ذلك وصولاً بالموقف إلى نهايته في ترتيب منطقي قلما تحدث فيه وقفات، فيوضح لنا الكاتب اللحظة النهائية حزينا من نفسه على موت الضابط واسمه عبد القادر ويقدم الكاتب مشاعره وأحاسيسه خلال مصاحبته بهذا الضابط المصاب بالرصاصات الثلاث وما يحس به خجل إزاء فشل وزملائه الآخرين أمام الموت فيكتب الكاتب ويختم قصته بهذه الكلمات الذهبية فيقول:

" وجال بخاطري أن أعانق زميلي وأضم ما في صدري إلى ما في صدره وأخفي

ما أحس به من خجل إزاء فشلنا أمام الموت، أخفيه فيما يحس به من خجل..

"ولم أفعل. بقينا بلا زمن، راجين، نتأمل الرجل المسجى. وتحز الخسارة

في قلوبنا، وأعيننا ثابتة في مكانها لا تغادر وجهه الوديع الذي كان يلعب

بالعرق .. آخر عرق .. وملامحه التي استراحت في هدوء دائم. وحين

واريناه تحت الغطاء كان الشك في موته لا زال يملأ منا النفوس.."<sup>١</sup>

وحسب قول الكاتب ب. م. كريب شويك كأنه يقول "إن قصة ٥ ساعات" تعد من

أولى قصص الكاتب الناضجة. فقد تجلى فيها- بصورة مكثفة- عديد من خصائص

كتابة القصة عنده، في المرحلة اللاحقة: الأصداء الاجتماعية والسياسية، واختفاء

<sup>١</sup> قصة ٥ ساعات، من مجموعة "أرخص ليالي" ص ٩٠-٩١

<sup>٢</sup> نفس المرجع ص ١٠٥



الصبغة الرومانسية، وثرأ التفاصيل الواقعية، والبنية المتوازنة، واللغة السلسة المتدفقة التي تحذو حذو هذه أنماط العامية المصرية في تركيب الجملة والمفردات والاقتصاد في التعبير"<sup>١</sup>.

وتحدث الكاتب أيضا عن امتياز القصة من حيث الإحكام على نحو ما يكشف التحليل العابر. فيقول "هذه القصة تتميز بدرجة عالية من الإحكام، على نحو ما يكشف التحليل العابر. فتوترها ينشأ عن تضاد قطبين مختلفين: العالم العقلاني للمستشفى والعنف الهائج خارج جدرانها. وتدعم بنيتها الحدود الصارمة المفروضة على الزمان والمكان، والتغيير البارح للإيقاع- على المستوى الأسلوبي. وتروي القصة بضمير المتكلم، على نحو مباشر"<sup>٢</sup>. وفي ضوء آراء النقاد والأدباء وأثناء دراسة القصة توصلنا إلى هذه النتيجة أنهذه القصة القصيرة قصة رائعة. صادقة في مشاعرها الوطنية، التي هي ممزوجة بحس إنساني عال، يتصادم في النهاية بقدر الموت الذي لا فكاك منه.

وأما الأسلوب في نفس القصة الذي اختاره الكاتب فنجد فيه السهولة والوضوح والدقة في اختيار الجمل والألفاظ، ولقد قام الكاتب بتكشيف عن جوانب النفس الإنسانية ببراعة الطبيب، واستخدم الكلمات القريبة من لغة الحياة العادية، ولديه القدرة على تسلسل الأحداث وترابطها، وقد اختار من خلال كتابته الإيجاز، والتركيز، والبعد عن الاستطراد.

#### خاتمة

وخلص القول ساعدت مهنة الطب ليوسف إدريس أن يتطلع على الأوصاف السريرية للمعاناة الجسدية والنفسية. فهو ذو شعور رقيق يتألم عند رؤية المصابين بالأضرار الجسدية أو النفسية، وأما قصصه فقد تسودها المسحة الواقعية وهذه

<sup>١</sup> ب-م- كريب شوبك " الإبداع القصصي عند يوسف إدريس " ترجمة وتقديم رفعت سلام، ص ١١٦

<sup>٢</sup> المصدر السابق، ص ١١٦

الصفة تساعده أن يتفاعل مع القارئ وكأن الأحداث تحري أمام عينيه. وهو يتأمل في وحدانية الموت وحقيقة الحياة. فإذا اشتدت المعاناة وتدهورت حالة المريض حضر الموت الذي يهب الشخصية كرامة في هذا المأزق، وكان من طبعي للكاتب أن يرى كطبيب العديد من المشاهدات الدموية في مصر التي اكسبته حكمة التفاؤل التي تظهر آثارها في قصة "٥ ساعات".

### المراجع والمصادر

١. يوسف الشاروني "القصة تطورا وتمردا" ط: ٢، القاهرة ٢٠٠١، مركز الحضارة العربية.
٢. جماعة من الأساتذة "الأدب العربي الحديث للصف الثالث الثانوي، ط ١٩٩١-٩٢م، ومنه "القصة القصيرة العربية" ل-أ.د. سيد حامد النساج
٣. د. محمد الجوادي "يوسف إدريس الذي عاش السياسة في معطف الفنان الأزرق" ١٥-١٠-٢٠١٩م
٤. ب-م- كبر شويك، ترجمة وتقديم رفعت سلام "الإبداع القصصي عند يوسف إدريس" ط ١٩٨١م
٥. د. شفيق السيد "اتجاهات الرواية العربية" ط، ١٩٩٦م
٦. غالي شكري "يوسف إدريس" حوار، ص ٤٣ ديسمبر ١٩٦٥م
٧. الدكتور طه وادي "القصة ديوان العرب قضايا ونماذج، ط ١، ٢٠٠١م
٨. قصة ٥ ساعات من مجموعة "أرخص ليالي" ١٩٥٤م
٩. د. السعيد الورقي "مفهوم الواقعية في القصة القصيرة عند يوسف إدريس" الطبعة الأولى ١٩٩٠م
١٠. أ.د. فاروق عبد المعطي "يوسف إدريس بين القصة القصيرة والإبداع الأدبي" ط، ١٩٩٤م